

لها أن تختلط بظلمة الليل وفي جنباتها هذه الأنوار الضئيلة الشاحبة أنوار التفكير في غد والتذكر لأمس، والرؤية فيما نحن فيه؟! وأنتى لها أن تنام وهذه بنات الليل قد أخذت تظهر شيئاً فشيئاً وتدنو منا قليلاً قليلاً، وتثير فينا هذا الإشفاق البغيض الذي لا يستطيع أن يكون أمناً ولا يبلغ أن يكون خوفاً صريحاً، وإنما هو قلق خفيٌّ ماكر يفسد من حوله كل شيء؟! ونحن نريد أن نقاوم بنات الليل هذه فنغمض أبصارنا حتى لا نراها ونسد آذاننا حتى لا نحس قربها منا! والجمالان يسعيان في جدٍّ ونشاط لا يكاد يأخذ منهما الفتور، ثم يرتفع صوت خالنا غليظاً مخيفاً، كله شرٌّ وكله نكر وكله نذير: هنا يجب أن ننزل، وما هي إلا أن يُناخ الجمالان ولم تستطع واحدة منا أن تقول حرفاً أو أن تنطق بكلمة أو أن تفكر في شيء، وإنما هو زهول غريب كثيف قد أطبق علينا وملاً نفوسنا كما أطبقت علينا وملأت نفوسنا ظلمة الليل. وهذا خالنا قائم كالشيطان، وهو يأمرنا في غلظة وعنف أن ننزل فلن يمضي الجمالان أمامها قيد أصبع.

وها نحن أولاء ننزل مضطربات، ونسعى متعثرات، وهذه أمنا تريد أن تسأل فيم إناخة الجملين، وفيم النزول في غير منزل، وها أنا هذه أريد أن أقول شيئاً ولكني لا أكاد أدير لساني في فمي، ولا أكاد أستوعب ما كانت أمنا تقول؛ إنما هي صيحة منكرة مروعة تنبعث في الجو، وجسم ثقيل متهاك يسقط على الأرض، وإذا أختي قد صرعت، وإذا خالنا هو الذي صرعا لأنه أغمد خنجره في صدرها، ونحن عاكفتان على هذا الجسم الصريع يضطرب ويتخبط ويتفجر منه الدم في قوة كما يتفجر الماء من الينبوع، ونحن عاكفتان في زهول وغفلة وبله، لم نفهم شيئاً ولم نقدّر شيئاً ولم ننتظر شيئاً، وإنما أخذنا على غرة أخذاً واختطفت هنادي من بيننا اختطافاً، وجسمها يضطرب ويتخبط ودمها ينفجر ولسانها يضطرب ببعض الحديث في فمها، ثم يهدأ الجسم المضطرب، ويسكن اللسان المتحرك، ويخف تفجر الدم، ويمتلئ الجو حولنا بهذا السكون الأليم سكون الموت، ونحن فيما نحن فيه من زهول وغفلة وبله، وخالنا قائم أمامنا كالشيطان إلا أنه قد أخذ الزهول كما أخذنا ...

وهذا نداؤك أيها الطائر العزيز يبلغني من بعيد، وهذا صوتك يدنو إليّ قليلاً قليلاً، وهذا غناؤك ينتشر في الجو كأنه النور المشرق قد أظهر لنا ما كان يغمرنا من الهول دون أن نراه، وها أنت ذا تبعث صيحاتك يتلو بعضها بعضاً، كأنما هي سهام من نور قد تلاحقت مسرعة في هذه الظلمة فطردت عن نفسي زهولها وجلت عنها غفلتها وأيقظتها من هذا البله، وجلت لها الجريمة منكرة بشعة، والمجرم آثماً بغيضاً، والضحية صريعة مضرجة بالدماء ...